

## معنى وحدة الدين وديانات التوحيد في تاريخ الإنسانية

### ■ محسن الخوني

#### إيضاحات مفتاحية

##### 1 - البحث التيمي والبحث التاريخي

يقتضي منّا البحثُ في معنى وحدة الدين وديانات التوحيد مقارنةً تركّز في جانبٍ على المسائل والقيمات المتعلقة بمسألة وحدة الدين، وتهتمّ في جانبٍ آخر بالبعد التاريخي لديانات التوحيد. وقد تُفهم وحدة الدين أيضاً من جهة وحدة الدوافع المؤدية إلى ظاهرة التدين؛ إذ يرى بعض الباحثين أنّ السلوك الديني تعبيرٌ عن تحدّي البشر لظاهرة الموت، ويرى آخرون أنّ قيام الوعي البشري على ملكة التخيل يجعله لا يكتفي باللمس والمدرك المباشر، وأنّ هذا المعطى كامنٌ وراء بحث الأفراد عن روابط للمجموعة الاجتماعية مع وجود متعالٍ يحقق وحدتها واكتفاءها بذاتها. ويرى بعضهم الآخر في طبيعة الفرد الاجتماعية سبباً لتدينه، فما من دين إلا وتكون له وظيفة اجتماعية سياسية. ولعلّ هذا ما يفسّر وجود ديانات مدنية تركّز على ضرورة مهمة الفرد الاجتماعية، ومن الأمثلة

■ أكاديمي باحث، جامعة تونس - المنار.

على ذلك الديانة الإغريقية خلال الحقبة السقراطية. لقد كانت ديانة مدنية تقوم على ممارسة اجتماعية عمومية وعلى احتفالات مدنية. ومن تجليات ذلك أن الإغريق لم يأبهوا لدقائق وجزئيات اعتقاد المواطن، ما دام هذا الأخير ملتزماً بما يترقبه الجمهور منه، ومحترماً المواضع الاجتماعية أزمان السلم والحرب، والمواطن الصالح هو الذي يقوم بمهامه على أفضل الوجوه. وتختلف الديانة الإغريقية عن بقية الديانات حول فكرة الخلاص والخلود؛ لأنها غائبة عن معتقداتهم، ولا تقوم الديانة الإغريقية أيضاً على وجود طبقة من رجال دين بأيديهم مفاتيح أبواب الرحمة<sup>1</sup>. ودون الإمعان في ذكر التفاصيل فإن من معاني الكفر الإقامة في القرية بعيداً عن المدينة.

ومعلوم أن ليس ثمة تضارب بين جانبي المقاربة؛ أي الجانب التيمي والجانب التاريخي؛ بل يوجد بينهما تكامل ودينامية، فديانات التوحيد تكتسب صفتها من معنى وحدة الدين.

## 2 - الوحدة بين الخاص والعام

قد تكون الوحدة من قبيل الخاص الذي يقدم نفسه عاماً، أو المحلي الذي يقدم نفسه كونياً، وهذا الأمر يصح على مصطلحي الدين والإنسانية. ديانة معينة تعدُّ صورتها للتوحيد تصوراً كونياً له، وهذا من قبيل حصر المعنى، ومجموعة ما من الإنسانية ترى أنها الإنسانية. إنَّ لتمثُّل مثل هذا تبعاتٍ خطيرة على مستوى الممارسات بسبب أنه مغالطٌ وإقصائيٌّ. والقاعدة العامة التي يتبعها هذا التمشي هي استعمال أصحاب ديانةٍ ما القوة لفرض تصوراتهم وربما تشريعاتهم على الجميع باسم أنها ديانة الإنسانية جمعاء، وهذا السلوك ميّزة الديانات السماوية الثلاث؛ لأنها استعملت جميعاً القوة للانتشار وإن بدرجات متفاوتة، وذلك من منطلق أنها ديانات توحيد، لا تعترف بالحدود الخاصة ومن تعاليمها

John Rawls, *leçons sur l'histoire de la philosophie morale*, La Découverte poche, 2008.

الامتداد المستمر. ولكن هذا الموقف الإقصائي لا يظهر عادة بهذا الشكل السطحي؛ لأن ذهنية الإقصاء تحتوي على بذرة تآكل الذات: ادعاء جزء من البشرية أنه الإنسانية يحمل أسباب فناءه في ذاته؛ مثل الإمبراطوريات العظمى في التاريخ والمركزية الغربية الآن. وادعاء مذهب ديني معين أنه الدين سرعان ما يدب فيه الوهن، وهذا ما تؤكده الفتن الدينية عبر التاريخ وفي مختلف الديانات، ومن ذلك أيضاً ما نشهده في الحاضر من ظهور أصوليات جديدة ومهددة وهي تغذي الاختلافات داخل الدين الواحد تحت شعار التصحيح، كما تذكي من جديد نيران العداة بين الأديان، واستراتيجيتها في ذلك تغذية الحروب الدينية والطائفية وتحويل جميع الصراعات إلى صراعات دينية.

قد تكون الوحدة من قبيل الخاص الذي يقدم نفسه عاماً، أو المحلي الذي يقدم نفسه كونياً، وهذا الأمر يصحح على مصطلحي الدين والإنسانية. ديانة معينة تعدّ صورها للتوحيد تصوراً كونياً له.

### 3 - وحدة الشكل وتعدد المضامين

قد لا تنفي الوحدة - إن كانت شكلية - تعددية المضامين والمحتويات، وهذا ما نجده مثلاً في أحد معاني الإسلام على أنه دين الله مطلقاً ودين سائر الأنبياء والرسل. وهذا ما نفهمه من دعاء إبراهيم: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا

مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: 128]، وليس مقيّداً في المعنى التاريخي الذي يرتبط بظهور الرسالة المحمّدية. ونجد هذا المعنى للوحدة الشكلية أيضاً في وثيقة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، التي لا تنصّ على دين بعينه عندما ترفع حرية التدين إلى درجة الحق الأساسي للفرد، ومن ثمة تفهم وحدة الدين من جهة وحدة الحق في الاعتقاد، وممارسة الشعائر والطقوس المتعددة والمختلفة لكل فرد إنساني، وبقطع النظر عن الجماعة العقديّة التي ينتمي إليها.

#### 4 - وحدة الدين علامة على وحدة الإنسانية

وتفهم وحدة الدين على مستوى أنثروبولوجي وتاريخي، من جهة معاينة التدين كسلوك مشترك بين مختلف الجماعات البشرية الأكثر بدائية، والجماعات التي حققت أطواراً، ممّا اصطلح على تسميته تطوّراً أو تقدّماً. وهنا يصحّ القول بأن وعي الإنسان اتخذ منذ البداية أشكالاً دينية، وأنّ المجموعات البدائية أودعت نتائج ذكائها في تصوراتها الميثولوجية، وأنّ التدين بعدُ ثابتٌ في الإنسانية عبر مراحل تاريخها، وأنه لا يمكن رَفْضُ صفة التدين على عقيدة أو سلوك جماعيين من منطلق الاستعلاء أو التجاهل. وحدة الدّين يضمنها - في معناها الأول - المصدرُ الواحد أو المبدأ الأول، ويضمنها - في معناها الثاني - المتلقي الواحد الذي هو الإنسانية، رغم تنوعها وتكاثرها وتطورها عبر التاريخ الذي لا نعرف منه سوى النزر القليل.

#### 5 - وحدة الدين بين البدائية والحيوانية

ويمكن فهم وحدة الدين عبر تأمّل تأويليّ لبعض سلوكات الحيوانات التي لا تزال مُحاطة بالغموض لدينا، ونبرّر ذلك بأنّ الطبيعة البشرية - في جزء منها - حيوانيةٌ، وأنّ الاطلاع على هذا الجزء كفيلاً بأن ينيّر لنا البدايات التي نسيّت بسبب بعدنا الشديد عنها. وفي هذا السياق يمكن للملاحظة الموحّجة وفعل المقارنة أن يؤدّيا إلى استنتاج أنّ لبعض الحيوانات سلوكات غريزية شبيهة بالطقوس، ومن ذلك مثلاً ردود الفعل الغريبة التي تأتيها بعض الأنواع من الحيوانات على الظواهر الطبيعية أو سلوك الجماعة عند موت أحد أفرادها أو طقوس التزاوج. ومن المدهش أيضاً سلوك الوحوش تجاه الآخرين: طاعة عمياء وخضوع تام لمرؤّسها وشراسة شديدة تجاه الغرباء، عبودية وانقياد من جهةٍ، وتوحّشٌ مريب من جهةٍ أخرى. ولئن أدّى هذا النوع من المقارنات إلى جدل وتأويلات عدّة<sup>1</sup>؛ فإن ظهور الأشكال الأولى من الوعي البشري - سواء كانت معقلنة - أو - غير معقلنة - يعود إلى أكثر من مائتي ألف سنة مضت،

A. Leroi-Gourhan, *Préhistoire de l'art occidental*, Paris, Mazenod, 1965.

وتعود مظاهر الأشكال المتقدمة من الوعي المجرد والخيالي للإنسان إلى خمسين ألف سنة. ومن وجهة نظر علمية تجري في الحقبة الأخيرة دراسات مقارنة بين ديانات ما قبل التاريخ والديانات الإثنية، وذلك في سبيل فهم الدوافع البدائية لظهور الديانات التاريخية<sup>1</sup>.

## 6 - الدين والفطرة والطبيعة

قد تبدو الملاحظة السابقة غريبة في نظر بعضنا؛ ولكننا نجد في القرآن الكريم ما يدلّ على هذه المعاني عند الحديث عن الفطرة الدينية أو دين

تفهم وحدة الدين على مستوى أنثروبولوجي وتاريخي، من جهة معاينة التدين كسلوك مشترك بين مختلف الجماعات البشرية الأكثر بدائية، والجماعات التي حققت أطواراً، ممّا اصطلح على تسميته تطوراً أو تقدماً.

الفطرة: ﴿ تَسِيحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسِيحُ بِجَدِّهِ. وَلَكِنَّ لَّا نَفْقَهُونَ تَسِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: 44]. ولئن ارتبط الوعي البشري عامة والعلمي خاصة في العصور السابقة بالنزعتين الإحيائية والأنثروبومورفية في تصوّر الكون وأجزائه، ولئن قامت التحولات العلمية الكبرى للعصور الحديثة بموضوعة تصوراتها للطبيعة، مؤضعة أدت إلى نزع الطابع التقديسي عن عناصر الطبيعة، فإنّ ذلك لم ينسحب على جوانب عدّة من الرؤى الدينية التي

لم تواكب التحولات العلمية، ومن ذلك مثلاً أنّ الصوفيّة - رغم انتصار النظرة الموضوعية والميكانيكية للطبيعة والأحياء - لا تزال ترى أنّ الأحداث الطبيعية عامّة وسلوك الأحياء جميعاً على وجه الخصوص ردود فعل خطابية لعناصر الطبيعة<sup>2</sup>، كما أنّ الرأي المشترك غالباً ما يقرأ الأحداث الطبيعية الجزئية

1 - Emmanuel Anati, "Les religions préhistoriques", *Encyclopédie des religions*, 1. Histoire, (sous la direction de F. Lenoir et Y. Masquelier), Lonrai, Bayard éditions, 1997, pp. 3-33.

2 - «ومن كلمات الصوفيّة: الرعد صعقات الملائكة، والبرق زفرات أفئدتهم، والمطر بكاؤهم». فخر الدين الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج 19، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1981، ص 27.

والعامّة على أنها رسائل مباشرة إليهم من موت ورزق وولادة ومرض وأعاصير وجفاف وخيرات إلخ..

## 7 - التوحيد والإقصاء

دون الخوض في المقارنة والتقييم بين الرؤية العلمية وقابليتها للتقدّم والقطع مع تصورات الماضي، والرؤية الدينية ومحافظةها على تصورات ممّتت في يومٍ ما التصورات العلمية لعصرها، ثمّ تجاوزها العلم نفسه بفعل التقدّم في البحث؛ فإنه لا بدّ من الإشارة إلى قدرة الأديان على البقاء والتطور وقبول التعقيدات، واعتماد لغة رمزية تمنعها من الاندثار مع تقدّم أو تغيّر الجماعات البشرية، من ذلك مثلاً نجد الرؤية الدينية حاضرة في الحياة الاجتماعية للأفراد والجماعات لدى أكثر المجتمعات تقدّماً على صعيد العلوم والتقنيات. وهذا ما يضعف الموقف الإقصائي للدين سواء كان وضعياً أو ماركسياً؛ يرى المذهب الوضعي أن قانون تطوّر الوعي يقتضي انحسار الوعي اللاهوتي مع انتشار العلم في الحياة الاجتماعية وإخضاعه الظواهر الاجتماعية لمنهجه، أمّا الماركسية فهي تصنّف الأديان في خانة الإيديولوجيا والوعي المزيف، وبمجرّد تغيير ثوريّ للشروط الماديّة للإنتاج وعلاقاته يضمحلّ الوعي الديني ويتخلّص الناس من آفة الاغتراب. ولكن الأحداث التي أعقبت ظهور وانتشار هذين المذهبين - وخاصة الكتابات التي أنجزت داخلهما أو خارجهما - هيأت النظر إلى المسائل المستجدة بأقلّ تسرّع واستسهال. ومن ذلك مثلاً العودة القويّة إلى التدين التقليدي أو ظهور أشكال جديدة من التدين مرتبطة بالتحوّلات الديمغرافية والثقافية التي شهدتها هذه المجتمعات (الأوروبية أساساً) مثل البوذية والإسلام. ونحن في غنى عن التنبه إلى عودة الإسلام بقوة في الدول والمجتمعات العربية والإسلامية سواء في السلوكيات أو في السياسات.

## 8 - التوحيد بين التطورية والأداتية

يطرح تعدّد الديانات وتنوعها مسألة تصنيفها وترتيبها من جهة تفاضلها على صعيدي الواقع والتاريخ، وثمة استعمال أداتي للاختلافات

يقوم على سلّم تقييمي هرمي وأحاديّ، تصنف على أساسه المذاهب أو الديانات إلى متخلّفة وبدائية ومتقدّمة. وتكمن خطورة هذه الرؤية في فرض هذا السلّم من قبل الديانات ذات الطابع الكوني على الديانات المصنفة بدائية أو ضالّة، ومن ثمّة لا يبقى لها (إن أرادت الاندماج والتطور) غير الاعتراف بذلك التصنيف والخضوع لتبعاته. وفي هذا السياق نجد أنّ إرغام الآخرين على التخلي عن دياناتهم واعتناق دين الأقوى وسيلةً اتبعتها أغلب الديانات الكبرى، وأصبغت عليها طابع الواجب المقدّس. وهذا صحيح في القرون الماضية، ولم يضعف - رغم الرأي السائد - في بدايات العصور

الحديثة. لقد تزامنت الحداثة الأوروبية مع «تطهير» عرقي للسكان الأصليين للقارة الأمريكية، وتزيين جرائم الإبادة بحملات التبشير، كما كان استرجاع الأوروبيين لإسبانيا مشفوعاً بأعمال تفتيش ومحارق وقهر ونفي جماعي للمسلمين واليهود، ولم تكن الحملات الاستعمارية المسلّحة التي شهدتها القرن التاسع عشر من قبل القوى الأوروبية لبقية العالم - بدعوى التمدين والحماية والتحضّر - خالية من حملات تبشيرية، استعملت أدوات لوضع اليد على الأجساد والأرواح معاً. أمّا الكيان الصهيوني اليوم فهو يسوّغ جرائم احتلاله لأرض فلسطين وشعبها بمسوّغات دينية.

**يطرح تعدّد الديانات وتنوعها مسألة تصنيفها وترتيبها من جهة تفاضلها على صعيدي الواقع والتاريخ، وثمة استعمال أداتي للاختلافات يقوم على سلّم تقييمي هرمي وأحاديّ، تصنف على أساسه المذاهب أو الديانات إلى متخلّفة وبدائية ومتقدّمة.**

## 9 - التاريخ الإنساني بين الموجود والمنشود

ثمّة دوماً توتّر بين دافعين في التاريخ وهما الموجود والمنشود، وفي قضيّة الحال - وعندما نتناول مسألة تاريخ الأديان - فإنّ التاريخ الموجود يكشف عن واقع تحكمه الصراعات والفتن من جهة، ويكشف - من جهة أخرى - عن إشراقات خاطفة كلعق برق تضيء لحين ظلمة التاريخ البشري، فتعبّر عن تضامن منشود وسلم دائم. ولكيلا نجانب رصانة البحث فإن هذا التوتّر غير

مرتبط بتاريخ الأديان فحسب؛ بل ينسحب على جميع مجالات الحياة البشرية؛ مثل العدل والجور والغنى والفقر والصداقة والغربة. عالمٌ يسوده العدل ولا يشكو فيه أحد من الخصاصة، وكل الناس فيه أصدقاء؛ هو المنشود الذي يحرك الفكر الإنساني منذ القديم، وهو نوع من الاحتجاج على الواقع، ونوعٌ من الرفض له. وكذلك الأمر بالنسبة للحوار بين الديانات هو منشود ضدّ واقع يتّسم بالصراع والعداوات.

هذا التوتر وما يخفيه من نزعة واقعية يغلب عليها التشاؤم، ونزعةٌ مثالية أو يوتوبية يغلب عليها التفاؤل؛ يستمدّ عناصر الإجابة ومبررات طرحها من عقيدة حول الطبيعة الثابتة للناس؛ أهي الاحتراب أم المسالمة، وما التفاؤل أو التشاؤم إلّا تجسّدٌ لعقيدة معيّنة حول طبيعة الإنسان، فالذين يستعملون العنف في دعوة الناس إلى الأديان أو في ربط العلاقات بالأديان الأخرى يعتقدون بأن الناس لن يهتدوا إلّا بحدّ السيف، وأنهم إن تركتهم لأنفسهم وضمايرهم سوف يضلّون. أمّا الذين يدعون إلى ترك العنف في الدعوة وفي ربط العلاقة مع الآخر المختلف في الدين؛ فإنهم يتوسّمون الخير في الطبيعة الثابتة للإنسان. فالمسألة إذن ليست حكرًا على الدين؛ بل تشمل جميع جوانب الحياة الإنسانيّة، وهي مرتبطة بتصورنا لمدى عدّ الانسان خيّرًا أو شريراً. مردّ الأمر إذن إلى اعتقادات يتمّ ترسيخها حول طبيعة البشر، وأدوات ذلك التعاليم والتعليم والإعلام (اليوم) والمصالح الحينية والسياقات.

## الحوار بين الديانات بوصفه أداة لصنع وحدة مركّبة

### 1 - المعطى التاريخي

عندما يتعلّق الأمر بتناول مسألة الحوار بين المؤمنين الذين ينتمون إلى ديانات مختلفة؛ تشير أغلب الدراسات إلى برلمان ديانات العالم الذي يعود تكوّنه في مدينة شيكاغو إلى سنة 1893، والذي تمّ بعثه من جديد بمناسبة الاحتفال بمئويته في المكان نفسه سنة 1993، وهو ينعقد دورياً في

مدينة من العالم<sup>1</sup>، ويجمع - مدّة أسبوع - نحو عشرة آلاف شخص من طوائف وتقاليد دينية مختلفة ومن مختلف أصقاع العالم. ومن الأهداف المعلنة لهذا البرلمان تشجيع التناغم بين الأديان والقناعات المختلفة لا الوحدة؛ لأنّ هذه الأخيرة قد تهدد خصوصية كل تقليد ديني وروحي، في حين أنّ التناغم يحترم الطابع المميّز لكل تقليد، ويعدّ ذلك ثراء للإنسانية. كما يعلن القائمون على البرلمان أنهم لا يبحثون عن الإجماع بين الطوائف الدينية والفلسفية والروحية حول المسائل الإيمانية والممارسات والالتزامات؛ بل يبحثون عن لقاء يجعلهم يربطون فيما بينهم روابط اعتراف وتعاون<sup>2</sup>.

**عندما يتعلّق الأمر بتناول مسألة الحوار بين المؤمنين الذين ينتمون إلى ديانات مختلفة؛ تشير أغلب الدراسات إلى برلمان ديانات العالم الذي يعود تكوّنه في مدينة شيكاغو إلى سنة 1893، والذي تمّ بعثه من جديد.**

وقد انخرطت الكنيسة الكاثوليكية في هذا المنحى الواقعي والتاريخي للحوار بين الديانات منذ ستينات القرن الماضي، إثر اللجوء إليه في وثائق المجمع الفاتيكاني الثاني، وقد تمّ انخراط الكنيسة رسمياً في سياسة الحوار مع تغيير اسم «سكرتارية شؤون غير المسيحيين» التي أسسها البابا بولس السادس سنة 1964 إلى «المجلس الباباوي للحوار بين الأديان» سنة 1988، وذلك للتعبير

عن احترام أكبر لأديان العالم، ورغبة في الاعتداد بها في ذاتها وخصوصيتها. وقد رأى بعض الباحثين أنّ الكنيسة قد شرعت بذلك في القطع مع ذهنية التكفير والاقصاء، وذهنية التبشير والاحتواء والدخول في مرحلة بناء العلاقات والحوار.

1 - انعقد سنة 1993 بمدينة كيب تاون في جنوب إفريقيا، وسنة 2004 ببرشلونة في إسبانيا، وسنة 2009 بمالبورن في أستراليا، وسنة 2015 بمدينة سولت لايك في ولاية يوتا الأمريكية، وسينعقد هذه السنة بمدينة تورنتو في كندا.

2 - [https://www.parliamentofreligions.org/pwr\\_resources/\\_includes/FCKcontent/File/TowardsAGlobalEthic.pdf](https://www.parliamentofreligions.org/pwr_resources/_includes/FCKcontent/File/TowardsAGlobalEthic.pdf).

لقد تناول إعلان Nostraetate الشهير<sup>1</sup> علاقات الكنيسة مع الديانات غير المسيحية، وأصدر عنها حكماً إيجابياً، وذلك لأول مرة في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية. يبدأ الإعلان بتفحص الديانات غير المسيحية، ويقرّ بعدم رفض الحقيقة التي تحويها والمقدّس. ويحتوي الإعلان على نظرة تقدير إلى المسلمين، ويحدّد دواعي ذلك في عبادتهم «الله الواحد»، وفي ممارستهم للصلاة والصدقة والصوم. أمّا عن الديانة اليهودية فإنّ المجمع يعترف بـ «رباط روحي» بين المسيحيين واليهود، ويعبّر عن إرادته «تشجيع وتوجيه المعرفة والتقدير المتبادل». ويخلص الإعلان في النهاية إلى التأكيد على روح إنسانية «الأخوة العالمية»، ويشجب كل تمييز مرتبط بالعرق أو اللون أو الظروف أو الدين.

ومن الجهود التي بذلتها الكنيسة لتكريس الحوار بين الديانات الخطاب الذي توجّه به البابا إلى شباب مسلم في الدار البيضاء، استهله بالقول: «لنا - نحن المسيحيين والمسلمين، بوصفنا مؤمنين وبوصفنا بشراً -، أشياء كثيرة مشتركة؛ نحن نعيش في العالم نفسه الموسوم بدلالات أمل عديدة؛ ولكن أيضاً بكثيرٍ من دلالات القلق. وإنّ إبراهيم بالنسبة إلينا هو مثلنا في الإيمان بالله، وفي الخضوع لمشيئته، وفي الثقة في إحسانه. إننا نؤمن بالإله نفسه، الله الأحد، الحيّ، خالق العالمين ومرافقهم إلى الكمال»<sup>2</sup>. وتعرض فيه إلى حاجة العالم إلى مزيد من العدالة، وغياب التكافل بين دول الشمال ودول الجنوب، ومأساة الهجرة الجماعيّة.

ومن الأمثلة الأخرى على جهود الكنيسة في إرساء الحوار جسراً لتلاقي الديانات خطابُ البابا يوحنا بولس الثاني في الجامع الأموي بدمشق، وقد جاء فيه: «لقد عاش المسيحيون والمسلمون في سوريا جنباً إلى جنب، خلال قرون، واستمر بينهم - من دون توقف - حوارٌ حياتي غني. كل فرد وكل عائلة تختبر أوقات تناغم، كما تمرّ بأوقات ينقطع فيها الحوار. الخبرات الإيجابية

1 - [http://www.vatican.va/archive/hist\\_councils/ii\\_vatican\\_council/documents/vat-ii\\_decl\\_19651028\\_nostra-aetate\\_fr.html](http://www.vatican.va/archive/hist_councils/ii_vatican_council/documents/vat-ii_decl_19651028_nostra-aetate_fr.html).

2 - شباب من المسلمين في ملعب الدار البيضاء في أغسطس 1985. من خطبة البابا أمامهم.

يجب أن تُشدد جماعاتنا في رجاء السلام؛ ولا يُسمَحَنَّ للخبرات السلبية أن تخبِّب هذا الرجاء. علينا أن نطلب الغفران من القادر على كل شيء عن كل مرة أهان فيها المسلمون والمسيحيون بعضهم بعضاً، كما علينا أن يغفر بعضنا لبعض. يعلِّمنا يسوع أنه يجب أن نغفر إهانات بعضنا لبعض إذا أردنا أن يغفر الله خطايانا (متى 14/6). كوننا أعضاء في العائلة الإنسانية الواحدة ومؤمنين يفرض علينا واجبات نحو الخير العام، ونحو العدالة ونحو التضامن. الحوار بين الأديان يؤدي لا محالة إلى أنواع شتى من العمل المشترك، خاصة في القيام بواجب الانتباه إلى الفقير والضعيف. هذه هي علامة صدق عبادتنا لله<sup>1</sup>.

**يشهد التاريخ أنّ اللقاء بين الديانات كان على الدوام لقاءً احتواءً وهيمنة، وأنّ الطريق المؤدّية إلى التوحيد على أرض الواقع يظهر في شكل حرب وجود وامتداد. ولكن هذه الطريق لم تؤدّ في يومٍ ما إلى سلم دائمٍ.**

## 2 - الحوار أداة لتوحيد ديانات التوحيد

هذه القناعة لا تزال في بداية تركيزها، وهي تقوم ضدّاً لواقع محكوم بنزاعات مريرة بين الديانات التاريخية، وخاصة التوحيدية منها؛ إذ لم يتمّ قبول أيّة ديانة جديدة بترحاب، كما أن قيام الديانات على الدعوة وواجب التوسع يجعل فضاء الجغرافيا البشريّة ساحة تحارب وتقاتل بينها، لذلك كان اللقاء بين المسيحية واليهودية مشحوناً، وكذلك اللقاء بين المسيحية والإسلام. هذه الصدمات التاريخية كوَّنت معطى تاريخياً قارّاً، وهو العداء المتجدِّر في العقائد الجماعية والقابل دوماً للانفجار.

ويشهد التاريخ أنّ اللقاء بين الديانات كان على الدوام لقاءً احتواءً وهيمنة، وأنّ الطريق المؤدّية إلى التوحيد على أرض الواقع يظهر في شكل حرب وجود وامتداد. ولكن هذه الطريق لم تؤدّ في يومٍ ما إلى سلم دائمٍ؛ بل كانت تؤدّي - في أفضل الحالات - إلى خمود الصراع وتأجيله.

<http://www.terezia.com/section.php?id=286>.



تنطلق مأسسة الحوار بين الديانات من العمل على تحويل الديانات من عوامل أو مبرراتٍ صراعٍ وتقاتلٍ بين الشعوب - وهذا بيّن في التاريخ الطويل للصراعات الدينية - إلى عوامل تقاربٍ وتضامنٍ بينها. ونحن على علم بأن هذه الرؤية لا تروق لأصحاب المواقف المتصلبة والمتعصبة من داخل الأديان؛ لأنهم يرون أنّ النجاح الجذري في المعركة يكون في إلغائهم بالقوة لجميع العقائد والأديان الأخرى. وهذا التوجّه لا يروق أيضاً لأصحاب المواقف الإقصائية للأديان؛ لأنّهم يرون الحلّ في اقتلاع الأديان من ممارسات البشر الفردية والجماعية؛ لذلك فهم يربطون التدين دوماً بالتخلف والبدائية. ورغم هذه المواقف السلبية من الحوار بين الديانات - وهي مواقف مشتركة بين أشدّ الأطراف تباعداً في مسائل أخرى - فإنّه يمثّل منعرجاً إيجابياً في التاريخ الراهن للإنسانية.

ويمثّل الانخراط الرسمي في هذا التيار تعبيراً عن استعداد للإسهام في إرساء مناخٍ سلميٍّ بين الشعوب المتعددة الديانات. والحجّة العقلية الداعمة لهذا الموقف تستمدّ من التنبيه إلى وسائل الحرب والتدمير، التي ما فتئ الناس يتنافسون على اختراعها وتطويرها وتصنيعها بكميات ضخمة منذ فجر الحداثة، هذا المعطى الثابت يقتضي من الجميع - وفي مقدّمهم الأقوياء - تحمّل مسؤولياتهم ومراجعة المواقف والتقاليد القديمة، والتي كانت تقوم عموماً على تكافؤ بين القوى البشرية. ومراجعة المواقف هي حجّة في صالح الضعيف قبل القويّ، وهذه المراجعة تكون في اتجاه تحويل الأديان من أدواتٍ تحاربٍ مقدّسٍ إلى أدوات تقاربٍ إنساني، وسيراً في اتجاه الإقلاع عن عقيدة تقديس قتل الآخر بدافع عقائدي، والانخراط معه في التحاور في سبيل التعايش السلمي. ولكن الحوار على أهميته كمنعرج جديد في علاقات الديانات بعضها ببعض يفتح الباب لنشر قيم بشرية جديدة، وتجاوز ماضٍ مليء بالصراعات؛ على أهميته تلك فإنّه قابل للتحويل إلى مجرد شعار يخفي واقعاً لم يتخلّ فيه العاملون عن العادات القديمة، عادات عدم ثقة أصحاب العقائد المختلفة بعضهم في نوايا بعض.

### 3 - خطر الاستعمال الأداتي للحوار

ثمة اختلاف أساسي بين التفاوض والمناظرة والحوار؛ الحوار الحقيقي يديره أطراف لا يَحْتَكِمُونَ إِلَّا إلى الحجج العقلية، ويكون كل منهم مستعداً للتخلي عن موقفه إن لم تكن الحجة الأقوى لصالحه. هذا الوضع المثالي للحوار يميّزه الفيلسوف الألماني المعاصر عن الحوارات الواقعية، ويجعله معياراً تقاس به الحوارات الواقعية، معتمداً في ذلك على أدوات النظرية التداولية. ومن الطبيعي أن تخرط الحوارات الدينية في هذا الصنف الواقعي من الحوار، والذي تتحكّم فيها المصالح ومواقع القوة<sup>1</sup>. وربّما يكون من

الأفضل - عند الحديث عن حوار الأديان كجسر نحو السلم - أن يقع التركيز على معوقات الحوار انطلاقاً من معيار يقبله المتحاورون.

**ثمة اختلاف أساسي بين التفاوض والمناظرة والحوار؛ الحوار الحقيقي يديره أطراف لا يَحْتَكِمُونَ إِلَّا إلى الحجج العقلية، ويكون كل منهم مستعداً للتخلي عن موقفه إن لم تكن الحجة الأقوى لصالحه.**

وفي الاتجاه نفسه يمكن عدُّ التبشير والاستعمار عائقين أساسيين، وهما واقعان عرفتهما مجتمعاتنا وتحفظُ عنهما أسوأ الذكريات؛ كتب عمر فروخ في هذا السياق «نعتقد أنّ التبشير كله شرٌّ؛ لأنّ الأمريكيين والإنجليز والفرنسيين والهولنديين ومن لفّ لفّهم يقولون خيراً بأفواههم؛ بينما أثار أيديهم

ظاهرة لنا في فلسطين والمغرب والهند الصينية وقبرص وكشمير وجنوب إفريقيا وفي الولايات المتحدة نفسها. إنّ على هؤلاء كلّهم أن يغسلوا أيديهم من دماء ضحاياهم على الأقلّ قبل أن يمثّلوا على مسرح الإنسانية دور المحسن الكريم»<sup>2</sup>.

1 - انظر الفصل الخامس من كتابنا: المجتمع والعقل التواصلي، الطبعة الأولى، تونس، الدار العربية للكتاب، 2014، ص 195 - 232.

2 - عمر فروخ ومصطفى خالدي، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، الطبعة الثالثة، بيروت 1982، ص 38. انظر كذلك محمد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلاته بالاستعمار الغربي، ط 5، بيروت، 1970.

والحقيقة أن الكنيسة وهي - منخرطة في سياسة الحوار بين الديانات - لم تتخل عن رسالتها التبشيرية. أمّا السبب الكامن وراء ذلك فنجد له لدى الحبر الأعظم الذي يعتقد أنّ «الحرية الروحية الحق لا تكون إلا بالمسيح؛ إذ بالمسيح وحده يمكن للإنسانية أن تخلص من عبوديّة الخطيئة والموت»<sup>1</sup>، ويستنتج المؤلف في نهاية التحليل ما يلي: «فالحوار بالنسبة إلى قداسته لا يعدو كونه مجرد وسيلة للتبشير؛ ذلك أنّه يصرّح بأنّ «الحوار بين الديانات يشكّل جزءاً من رسالة الكنيسة التبشيرية». كما يشير إلى أن الحوار يجب أن يوجّه وينمّي ضمن الاقتناع بأنّ الكنيسة هي «الطريق العادية للخلاص، وأنها وحدها تملك ملء وسائل الخلاص»<sup>2</sup>. ودون ادعاء أن هذا المنطق الأحادي والدعائي غائب في مواقف الديانات الأخرى - وخاصة التوحيدية منها - يجب الإقرار بأنّ الازدواجية أمرٌ عاديّ في خطابات قادة وأتباع الأديان؛ فثمة خطاب يوجّه إلى الأتباع الخالص، وخطاب إلى الآخرين الذين يمكن أن يكونوا مشروع شركاء في الإيمان. كل طرف غير مستعد أن يتنازل عمّا يكون هويته الدينية ونواتها، التي هي الاعتقاد بأنهم يحملون في عقيدتهم الحقيقة المطلقة. ويُعدّ التنازل عن تلك النواة خروجاً من دائرة المجموعة الإيمانية التي يدافع عنها. لذلك لا بدّ من تدقيق الكلمات التي نستعملها، عندما نتحدث عن حوار بين الديانات علينا أن ندقق أن الحوار بين مؤمنين ينتمون إلى أديان متعدّدة، وأن الحوار ليس في سبيل أن يقنع المؤمنون بديانة معينة بقية المؤمنين المختلفين عنهم بأنهم هم الذين على حق في المعتقد؛ وإنما في سبيل العمل معاً من أجل نشر السلم في العالم، وتقليل أسباب البؤس والألم المنتشرة فيه.

كذلك الأمر بالنسبة إلى اليهود؛ فإن الجانب الإقصائي حاضر في خطاباتهم وسلوكاتهم، ورغم التحالف الذي نَسَجَ منذ مدة طويلة لُحمةً بين المسيحيين واليهود، ووجّه عادة ضدّ المسلمين؛ فإن لليهود عقيدة راسخة يعبر

1 - محمد أيوب، دراسات في العلاقات المسيحية الإسلامية، الجزء الثاني، ترجمة كاترين سرور، منشورات مركز الدراسات المسيحية الإسلامية في جامعة البلنمد، الكورة، لبنان، 2001، ص 240.

2 - المرجع السابق ص 241.

عنها اللاهوتي الهولاندي أرنند فان ليون في كتاب المسيحية في تاريخ العالم: «تمثل إسرائيل وأرض إسرائيل كل الأرض، وكل الجنس البشري. إسرائيل نفسها هي خلقٌ جديد، وأرضها قطعة من أرض جديدة سيخلقها الرب. لهذا السبب الأساسي؛ فإن حياة الأرض كلها مرتبطة بالوعد أن إسرائيل ستعود إلى أرضها. وكما أن شتات إسرائيل بين كل الأمم علامة على حكم الله على الأرض جميعاً؛ كذلك هو الوعد بأن الله سيجمعهم مرة أخرى من بين كل الأمم، وهو الذي جعل شتاتهم لصالح الجنس البشري كله. فالله يكشف بإسرائيل - شعبه - ما هو قصده حيال الأرض برمّتها»<sup>1</sup>. هذه العقيدة العنصرية والقائمة على خرافات وتوهيمات تكمن وراء الاستعمال الأداتي للحوار من قبل اليهود،

وهي سبب توجّس الكثير من مقاصد الداعين إلى الحوار كسياسة جديدة لأنهم يرونها أدوات جديدة تُستعمل لخدمة الأغراض القديمة نفسها.

ومن دون استثناء المسلمين من ذهنية الاستعمال الأداتي للحوار، بسبب وجود ازدواجية في الخطاب، عندما نجد تمسكاً بعقيدة الجهاد المقدّس، وتقسيم العالم إلى دار سلم ودار حرب كإجراء لتوحيد العالم حول الإسلام، أو العمل لجعل الإسلام الدين الوحيد للعالم.

#### 4 - بعض الشروط الضرورية لإنجاح الحوار

ولتوفير عوامل إنجاح الحوار بين الديانات: على كل طرف من المتحاورين أن يركّز على ما يجمع بين الأديان لا على ما يفرق بينها، ومن مزايا الحوار أنه يدرّب أصحاب الديانات - وفي مقدّماتهم صنّاع الرأي العام - على تكوين وعيٍ بنسبيتها التاريخية، وملاءمة هذا الوعي مع جوهر السلوك الديني، وهو اعتقاد الوصل بالمطلق، وهو الأرضية الثابتة في كل دين.

1 - نقلاً عن وليم الشريف، المسيحية، الإسلام والنقد العلماني، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 2000، ص 108 - 109.

**لتوفير عوامل إنجاح الحوار بين الديانات: على كل طرف من المتحاورين أن يركّز على ما يجمع بين الأديان لا على ما يفرق بينها، ومن مزايا الحوار أنه يدرّب أصحاب الديانات - وفي مقدّماتهم صنّاع الرأي العام - على تكوين وعيٍ بنسبيتها التاريخية.**

وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفُسُكُمْ﴾ [الحجرات: 13]، تأسيساً للاعتراف بالآخر على أرضية التقوى. وفي ذلك دعوة إلى التخلي عن منطق الاستيعاب، والتخلي بمنطق الاعتراف بالآخر المختلف، والذي كان عدوًّا فيصبح طرفاً في الحوار، ومعلوم أنّ التخلي عن منطق الاستيعاب لا يقتضي ضرورة التخلي عن القناعات الباطنية والثقة بالنفس، ويجدر بالذكر أن هذا الموقف يقوم على الانفتاح الطوعي على الآخر لا بوصفه عدوًّا يجب كسر إرادته وقناعاته؛ بل بوصفه شريكاً في بناء مناخ تواصل وتعامل مشترك. والتجربة الدينية الباطنية كفيلة بالتربية على هذا النوع السلمي من التعامل، فصلاة المؤمنين - وإن كانت في جماعة إيمان متضامنة فيما بينها - تقتضي من الفرد ساعة قضائها انغماساً كلياً في مناجاة الخالق، ووضعاً للآخر بين قوسين، وكأنّ وجوده عارضٌ أو معدوم.

هذه التجربة التعبديّة تبني استعداداً نفسياً للتوحيد، يمكن الاستلهاً منها لنسج علاقة تنبني على الأساس التوحيدي نفسه بين أصحاب الديانات المختلفة، والتي ربّما كانت متنازعة. ويقتضي التوحيد تجاوزاً للغيرية، وتوجّهاً كلياً نحو المعبود، وعدم جعل استيعاب الآخر شرطاً للعبادة، وهنا يفقد الجهاد المسلّح أولويته المطلقة في التدين، ولعل هذا ما يفيدنا به الحديث النبويّ عند فتح مكّة: «عدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»؛ أي تهذيب النفس وعدم طاعة الشيطان الذي هو رمز الشرك، ولأنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيروا ما بأنفسهم.

ولئن دخل المسلمون بعد ذلك في حروب الفتوحات، ونجحوا فيها نجاحاً بيناً؛ فإنّه كان حريّاً بهم - بعد ذلك النجاح - تغيير محتوى الجهاد ورهاناته؛ إذ بعد أن انتشر الإسلام في العالم وفرض وجوده بالقوة ونهائياً في العالم عليهم أن يعملوا بهذا الواجب على مستوى كوني، ويكون ذلك بتركيزهم أولاً على تهذيب نفوسهم في معاملاتهم بعضهم مع بعض. وهذا الواجب مطروح على الصحابة أنفسهم ومن جاء بعدهم منذ وفاة الرسول، وكذلك على جميع

المسلمين الذين جاءوا بعدهم. ويكون ذلك أيضاً في بناء المؤسسات الداعمة لهذا الجهد التهذيبي، وعدم جعل توحيد الآخر بطريقتي نفسها شرطاً للعبادة والتوحيد؛ لأنّ الاعتراف بالآخر شريكاً في الوجود والاعتراف بحريته في معتقده يلغي شرعية وصايتي عليه، ومن ثمّة شرعية استعمال القوة والعنف لفرض عقيدة ما عليه، ومن ثمّة - ولكيلا نكون في عين القارئ بمثابة الحالمين وعيونهم مغلقة عن الواقع - يقتصر استعمال القوة على الدفاع عن وجودنا المهتد.

**يبدأ تهذيب النفس بالامتناع عن قتل القريب الشريك في الدين، وينتهي ثانياً إلى الامتناع عن قتل الغريب المخالف لنا وربّما المناوئ في العقيدة والدين. ومن هذا المنظور يفقد الجهاد المسلّح أولويّته المطلقة في التدين من حيث هو فعلٌ توحيدى لله الواحد الأحد.**

ويبدأ تهذيب النفس بالامتناع عن قتل القريب الشريك في الدين، وينتهي ثانياً إلى الامتناع عن قتل الغريب المخالف لنا وربّما المناوئ في العقيدة والدين. ومن هذا المنظور يفقد الجهاد المسلّح أولويّته المطلقة في التدين من حيث هو فعلٌ توحيدى لله الواحد الأحد. وفي هذا التحول في الموقف يقع تحاشي خطر استعمال وسائل الدمار الشامل في الصراعات الدينية، ويوجّه استعمال القوة للدفاع عن الذات ضدّ ما يهدّد الوجود الحي أو الوجود الأصلي، الذي يسمح بوجود الحياة،

ومن ثمّة بوجود الأحياء الذين من بينهم البشر، فالله وحده يسلب الحياة، ومن يفعل ذلك فقد أساء استعمال حريته وادّعى الألوهية، ومن ثمّة فقد أشرك بالله وخرج من ملّة التوحيد.

ومن شروط نجاح الحوار بين الأديان أن يتحاشى المتحاورون الخوض في المواضيع الخلافية في التوحيد، وفي كيفية تصور الألوهية ومضامين المقدس، وأن يتجنبوا تقديم إيمان الآخر وثقافته بصور مشوّهة. وعندما نحصر حديثنا عن الديانات التوحيدية الثلاث فإننا نقصد أن يعمل كل أصحاب ديانة على تجاوز الخلافات الداخلية بين طوائفهم، ولعل ذلك



يكون بمثابة الامتحان الداخلي الذي يمهد النجاح فيه إلى النجاح في أعوص امتحان أمام البشرية، وهو جعلُ المعتقدات والأديان - رغم اختلافها وتناقضها - أدواتٍ سلمٍ وإخاءٍ وثراءٍ وتنوّعٍ.

وثمة مسألةٌ أخرى يفرضها عصرنا الذي شهد ثورة معلوماتية وتطوراً منقطع النظير لتقنيات الإعلام والاتصال. والحق يقال أنه على عكس بعض من وسائل الاتصال السمعي والبصري التي تقوم باستغلال الفرص المتاحة لتركيز روح الإخاء والتراحم؛ تستعمل الكثير من الوسائل الأخرى معاول للهدم والتخريب.

لقد تقدّمت خبرات استعمال وسائط الاتصال في التأثير على الجماهير وصناعة الرأي العام إلى درجة ترويضه، بل والتلاعب به إلى حدود يستعصي فهمها على الوعي الطيب والبسيط. وقد استعملت هذه الوسائط كوسائلٍ حربية في علاقات الديانات بعضها ببعض، واعتمدت ضروباً من الدعاية والمناورة ونشر الفتن وتهييج الأحاسيس والعواطف، وإضعاف قيم التسامح والتدبير، إلى درجة أن كلمة أو صورة أو كاريكاتوراً تتسبب في إزهاق أرواح بريئة، وفي إحداث أزمات ديبلوماسية وعداء بين فئات أو شعوب، تصبح وكأنها مجرد مجموعات إيمانية، هويتها تختزل في العقائد والطقوس؛ لذلك فإنّ التركيز على ما يجمع بين الديانات لا على ما يفرّق. ويقتضي الحوار بين الديانات عدم تجييش المؤمنين ضدّ مؤمنين آخرين، واتباع خُلُقٍ يخفف من حدّة التوتر والعداء وتغذية قيم التعامل السلمي. وبقدر ما تحتوي هذه الوسائط على قدرات في الهدم والتحطيم تحتوي على قدرات في البناء والتشييد؛ إذ يمكن استغلال قدراتها للتركيز على توحيد البشرية في كنف التعاون والسلم، وهو الهدف النبيل والأخير الذي يتضمنه كل دين بوصفه موجّهاً لبناء المجتمع البشري الكبير؛ فالبشرية واحدة رغم تعدّد الشعوب والديانات والعقائد، والوحدة من هذا المنظور لا تنفي التعدد والتنوّع وهذا ما يقتضي بلورة إيتيقا كبرى تنخرط فيها الشعوب، وتستعمل فيها أدبيات حقوق الإنسان والشعوب استعمالاً بناءً.

## الخاتمة

تسمح لنا الملاحظات المفتاحية والتحليل السابق أن نختم بتوجيه انتباه القارئ الكريم إلى أمرين: يتعلق الأول بأهمية الفلسفة في القيام بتهيئة الأرضية الكفيلة بحوار عميق بين الأديان، ويتعلق الثاني بالتسامح بصفته فضيلة لحوار واقعي بين أتباع الديانات المتعددة والمختلفة.

تساعدنا الفلسفة على استعمال العقل استعمالاً منهجياً وحرراً، ويجب إلّا نخشى على العقائد منها. ويمكن أن نستتير في ذلك بما كتبه ابن رشد في فصل المقال مثلاً من «أن الشرع دعا إلى اعتبار الموجودات بالعقل وتطلّب

لقد تقدّمت خبرات استعمال وسائل الاتصال في التأثير على الجماهير وصناعة الرأي العام إلى درجة ترويضه، بل والتلاعب به إلى حدود يستعصي فهمها على الوعي الطيب والبسيط.

معرفتها به، فذلك يبيّن في غير ما آية من كتاب الله تبارك وتعالى<sup>1</sup>، وإضافة إلى أن البشر من الموجودات التي دعانا الله إلى معرفتها ومعرفة طرق معاشها واعتقادها وفهمها؛ فالفلسفة قادرة على لعب دور المترجم للمعتقد بلغة العقل، سواء بالتبسيط أو التعقيد. ولأن التفلسف ليس حكراً على أحد فلا بدّ من استعانة الأخيرين بالأولين وأهل الملة الواحدة بالملل الأخرى»، وإذا كان غيرنا قد فحص عن ذلك المنطق؛ فبيّن أنه يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله مَنْ

تقدمنا في ذلك، وسواء كان ذلك الغير مشاركاً لنا أو غير مشارك في الملة؛ فإن الآلة التي تصحّ فيها التذكية، ليس يعتبر في صحة التذكية بها كونها آلة لمشارك لنا في الملة أو غير مشارك، إذا كانت فيها شروط الصحة. وأعني بغير المشارك مَنْ نظر في هذه الأشياء من القدماء قبل ملة الإسلام<sup>2</sup>. ويمكن تعميم القاعدة التي يضعها ابن رشد على جميع الكتابات، سواء ظهرت قبل الإسلام أو بعده؛ لأن المنهج المقصود يخضع إلى آداب بحث يوجزها

1 - ابن رشد. فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من اتصال، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1997، ص 91.

2 - المرجع السابق نفسه.



الفيلسوف الفقيه فيما يلي: «يجب علينا إن ألفينا لمن تقدّمنا من الأمم السالفة نظراً في الموجودات واعتداداً بها - بحسب ما اقتضته شرائط البرهان - أن ننظر في الذي قالوه من ذلك وما أثبتوه في كتبهم، فما كان منها موافقاً للحق قبلناه منهم وسررنا به، وشكرناهم عليه، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم»<sup>1</sup>. ولو أمكن تهذيب العقول على هذا النحو من صرامة البحث والتزامه بالحقيقة وتحليه بروح التسامح، ونشرنا ذلك بين النشء؛ لتمكنا من إضعاف أسباب التوتّر بين المتحاورين ذوي العقائد المختلفة.

وتتعلّق المسألة الثانية بمفهوم التسامح الذي أضاف إليه الفيلسوف الألماني المعاصر ريني فورست إيضاحات قيّمة<sup>2</sup>، ويبيّن لنا في مؤلّفه المذكور أنّ التسامح فضيلةٌ تستوجبها المجتمعات التعددية، وهو لا يلغي النزاع؛ وإنما يفكّك مخاطره، ويسمح للمتنازعين بأن يتعايشوا في ظلّ التعدديّة، ولذلك تهتمّ الفلسفة ببناء التسامح معياراً للتعامل، وأولى بنا وأحرى أن نقحمها في لعب هذا الدور داخل عالم واحد يخترقّه التنازع من كل جانب. وللتسامح مفارقاته وحدوده ومغالطاته، ليس هذا مجال عرضها؛ ولكن بالتعرف عليها نتهياً لممارسة أفضل. والحوار عندما يتسلّح بفضيلة التسامح يمكن أن يفضي إلى التعامل مع آخر مختلف، ومخالف دون أوهام بضرورة أو إمكانية هدايته لعقيدتنا: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: 56]، أو إخضاعه لسلطتي: ﴿لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الفاشية: 22].

1 - المرجع السابق نفسه.

2 - Rainer Forst, *Toleration in conflict (past and present)*, New York, Cambridge University Press, 2013.